وظيفة الشعر بين الإمتاع والفائدة

طبيعة المضمون الشعري هي التي تحدد القيمة الأخلاقية ومن ثم وظيفة النفع في القصيدة، في حين تظل وظيفة الإمتاع صدى لقيم الفن. وهذا يحتمه تصور عناصر القصيدة مفككة، والاهتمام بالمضمون، والحكم عليه في ذاته، والفصل التصوري لعناصر القصيدة أو لثنائيتها: صورة ومادة، ينعكس في تصور الوظيفة. فالوظيفة الجمالية صدى للصورة، والوظيفة النفعية صدى للمادة. لكن هذا لا يعني أن الوظيفتين مستقلتان، بل إن الفصل يفرضه تتبع أثر الشعر في النفس، وبعث طبيعة الانفعال الحاصل في النفس من الشعر ومراحل امتداده، فإن وظيفة النفع لا تتحقق إلا عبر الجمال، ومن ثم يتحتم في التصور المتكامل تماسك المستويين: الصوري والمادي، ومنه التحام الأثرين الجمالي والغائي. هذا في طبيعة الفهم الفلسفي للشعر، أي فيما ينبغي أن يكون عليه الشعر. أما في الموجود، فقد تأسس نقد الفلاسفة للشعر العربي في بحث الوظيفة.

والحق أن ثنائية التحسين والتقبيح التي تؤدي إلى ترغيب أو ترهيب تتجسد في الغرضين الكبيرين: المدح والهجاء، وتستندان في دراسة النفس إلى شعبتي القوة النزوعية: الشهوانية والعصبية، إذ تهدف الأولى إلى طلب ما يرضي وتحصيله، وتقوم الثانية بدفع الضار ومسك النفس وقبضها عن الاندفاع. ولذلك يظل التصور الفلسفي متماسكا في هذه الثنائيات الحاسمة، فإذا كان: «المحاكون والمشبهون إنما يقصدون بذلك أن يحثوا على بعض الأفعال الإرادية، وأن يكفوا عن عمل بعضها، فقد يجب ضرورة أن تكون الأمور التي تقصد محاكاتها: إما فضائل، وإما رذائل. وذلك أن كل فعل وكل خلق إنما هو تابع لأحد هذين: أعني الفضيلة والرذيلة. فقد يجب ضرورة أن تكون الفضائل إنما تحاكى بالفضائل والفاضلين، وأن تكون الرذائل تحاكى بالرذائل والأرذلين. وإذا كان كل تشبيه وحكاية إنما تكون بالحسن والقبيح، فظاهر أن كل تشبيه وحكاية إنما يقصد بها التحسين والتقبيح»[1]. فالحث على الفضيلة يستوجب محاكاة الفضيلة، والكف عن الرذيلة يستوجب محاكاة الرذيلة. وهنا يستحيل النوعان إلى فضيلة؛ لأن محاكاة الرذيلة لا يقصد منها سوى تنفير النفس عنها، فانقباض النفس عن إتيان الرذائل فضيلة. وطبيعة المادة المحاكاة هي التي تحدد طبيعة الوظيفة الحاصلة، ومع ذلك: «قد يوجد للتشبيه بالقول فصل ثالث، وهو التشبيه الذي يقصد به مطابقة المشبه بالمشبه به من غير أن يقصد في ذلك تحسين أو تقبيح، لكن نفس المطابقة. وهذا النوع من التشبيه هو كالمحاكاة المعدة لأن تستحيل إلى

الطرفين: أعني أنها تستحيل تارة إلى التحسين بزيادة عليها، وتارة إلى التقبيح بزيادة أيضا عليها»[2].

وخشية أن يطعن هذا النوع من التشبيه الذي لا يراد منه سوى المطابقة في ثنائية التحسين والتقبيح، يأبى الفلاسفة أن يتصوروا له وجودا تاما، فهو معد بإضافة شيء عليه لأن يستحيل إلى تحسين أو تقبيح.